الخبر الموثوق والحديثُ الذي لا شك في صحته، خصوصاً لما اشتهر به هذا المؤرخ من جدية في البحث وعلمية في المنهج الذي يعتمد فيه «التدقيق المبني على المشاهدة والمعرفة المباشرة والتحري عن الأمور بمراجعة أولي الألباب وذوي العقول من الناس»[2].

يصف المقدسي مناخ بيت المقدس بأنه غير شديد البرد وغير حار وقل ما يقع بالمدينة ثلج، ثم يعدد منتجاتها من الفواكه والثمار منوهاً بأن الله تعالى جمع فيها «فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة»، وأما بناؤها فهو «حجر لا ترى أحسن منه» ثم إنك لا ترى «أتقن من بنائها ولا أعفّ من أهلها ولا أطيف من العيش بها ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مساجدها ولا أكثر من مشاهدها»، وهي «أصغر من مكة وأكبر من المدينة»، لها «ثمانية أبواب حديد» يعدّدها، وبها ماء واسع (أي كثير)، إذ إنه «ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، وقلّ دارٌ ليس بها صهْريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة»[3]. ويستفيض المقدسي، بعد ذلك، في وصف «المسجد الأقصى» بحيث يدخل في التفاصيل الدقيقة لهذا المسجد[4].

ولكن المقدسي يتوقف طويلاً عند عيوب مدينته فيحصي هذه العيوب إحصاء الخبير المتمرّس، فهي كما قيل عنها «طشت ذهب مُلِيء عقارب»، كما أنها «قليلة العلماء كثيرة النصارى» ليس فيها «للمظلوم أنصار، والمستور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس، وقد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس»[5].

وإننا، إذ نتوقف عند وصف المقدسي لمجتمع بيت المقدس في النصف الثاني من القرن الميلادي العاشر، وقبل الاحتلال الصليبي للمدينة، وهو الذي ألّف كتابه هذا بعد سن الأربعين بحسبما جاء في المقدمة التي وضعها بنفسه لهذا

---

(2) في تقديم الكتاب لمحققه د. محمد مخزوم، ص 9، والمستند إلى مقدمة المؤلف نفسه، م. ن. ص 19.

(3) م. ن. ص 143 ـ 145.

(4) م. ن. ص 145 ـ 147.

(5) م. ن. ص 144.